

الحاج أحمد باي بين المقاومة الفرنسية والمعارضة الداخلية

✍ الأستاذة جميلة معاشي

جامعة منتوري - قسنطينة-

مدخل



عرفت الجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر مقاومة عنيفة ضد الاحتلال الفرنسي ، إلا أن هذه المقاومة اتسمت بالإقليمية ، فقسمت البلاد إلى شطرين أساسيين ، مقاومة بالغرب الجزائري ، تزعمها قائد من أبناء البلاد ، حديث العهد بالحكم والسياسية ، وهو الأمير عبد القادر بن محي الدين ، ومقاومة في الشرق تزعمها الحاج أحمد ، باي قسنطينة ، سليل الدولة العثمانية ووزيئها الشرعي بعد زوال حكمها بمدينة الجزائر عاصمة الولاية.

وإذا نجح الأمير عبد القادر ، نسبيا ، في كسب تأييد القبائل العربية ، لاعتبارات كثيرة منها أصوله المحلية ، فإن الحاج أحمد باي الكرغلي ، ولاعتبارات كثيرة أيضا ، منها أصوله التركية واجه معارضة شديدة من قبل بعض القبائل القوية للبايلك ، وكانت هذه المعارضة ، في اعتقادي سببا حاسما في فشل مقاومته للفرنسيين .

* سياسة الحاج أحمد باي تجاه الأسر المحلية ذات النفوذ ببايلك قسنطينة :

اعترف الحكام العثمانيون ، منذ دخولهم الجزائر في القرن السادس عشر ، بشرعية حكم بعض الأسر المحلية ذات النفوذ ببايلك الشرق الجزائري (1) : وهي أسرة بوعكاز الذواودة ، حكام الصحراء ، وأسرة المقراني حكام مجانة وأسرة أحرار الحنانشة ، حكام الحدود الشرقية للبايلك ، بالإضافة إلى أسرة بني جلاب ، حكام تقرت . ويدخل هذا في إطار السياسة الحكيمة التي اتبعتها العثمانيون في مختلف ولاياتهم العربية ، وهي سياسة المحافظة على الوضع القديم بالولاية (2) تفاديا لأي صراعات مع أهل البلاد تمتع شيوخ هذه الأسر بفضل تلك السياسية ، بمكانة هامة توازت مع

مكانة بايات قسنطينة أنفسهم (3) ، وفي المقابل أخلص هؤلاء ، الشيوخ للحكم العثماني فكانت العلاقة بينهم وبين بايات قسنطينة علاقة تكامل وتعاون أكثر

منها علاقة صراعات أو خضوع طرف لطرف آخر واستمر الوضع كذلك إلى أن ظهرت أسرة محلية جديدة على الساحة السياسية وهي أسرة " بن قانة " ، التي أوصلها صهرها الباي أحمد القلي " 1754-1771م إلى السلطة ، عن طريق منحها مشيخة العرب على حساب شيوخ العرب الشرعيين من أسرة بوعكاز الذواودة ، وهو ما أشعل فتيل الحرب بين الاسرتين من جهة وبين أسرة بوعكاز وبايات قسنطينة المناصرين لأسرة ابن قانة من جهة أخرى . وإذا أقدم الباي أحمد القلي على

حكمهم قد يتحتم عليه إبقاؤها بينهم والتحريض على المناوشات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس . أما أوضاع السلم، فإنها تقارب بين العرب و توحدهم حول غرض واحد، وهذه حالة لا ينبغي أن يطمئن إليها إرساها من كان يريد السيطرة عليهم، إذ قد تأتي ظروف يتحد فيها هؤلاء الرجال كالأخوة ويجدون أنفسهم منظمين للقيام بالثورة ، وعلى العكس فإذا وجدت الحرب أو العدواة بينهم فإن من يريد حكمهم يكون دائما متأكدا من إيجاد الأنصار " (5)

تكريسا لهذه السياسة ، عمل الحاج أحمد باي ،على تشتيت صفوف الأسر القوية بالبايلك قصد السيطرة عليها وجعلها أداة طيعة في يده، وهو ما طبقه ، مثلا على أسرة أحرار الحنانشة ، حراس الحدود الشرقية للبايلك، بأخذة المشيخة منهم ومنحها لاحد أتباعهم وهو صديقه "منصور الرزقي" الأمر الذي أثار شيخ الأسرة الشرعي ، " الشيخ الحسنائي " ، واشعل نارالحرب بين أتباع الطرفين. ونفس السياسة طبقها الباي مع أسرة المقراني حراس الحدود الغربية للبايلك، إذ عمل علي التقرب من فرع " أولاد الحاج " ومنح حكم مجانة لشيخهم " احمد المقراني " على حساب بقية الفروع التي كانت خير عون للحكام العثمانيين منذ دخولهم المنطقة ، وهي فرع "أولاد عبد السلام " وأولاد بن القندوز" و"أولاد بورنان "، وقد بلغت أذية الباي لشيخوخ هذه الأسرة إلى حد التصفية الجسدية بالإضافة إلى السجن والتشريد (6)

إعطاء المشيخة لأسرة ابن قانة مناصفة مع أسرة بوعكاز فان حفيده الحاج احمد عمل ، بمجرد وصوله الى الحكم سنة 1826م ، على سحبها نهائيا من أسرة بوعكاز ومنحها لأخواله من لأسرة بن قانة ، الأمر الذي أفقد الأسرة الأولى السيطرة علي جزء كبير من نفوذها بالمناطق الصحراوية في حين جعل أسرة ابن قانة التي لا صلة لها بالصحراء ، سيدة على كامل المناطق الواقعة بين تقرت ،بسكرة و قسنطينة ، وهو ما أثار ضده أقوى أسرة صحراوية وهي اسرة بوعكاز الذواودة التي أعلنت عليه الحرب وبدلا من انتهاجه سياسة حكيمة تجنبه الدخول في صراع مع هذه الأسرة القوية عمل الحاج احمد باي على التحالف ضدها مع عدد من الأسر القريبة من مدينة قسنطينة ، مثل أسرة بوعكاز بن عاشور، حكام فرجية واسرة عز الدين حكام زوارة ، بالإضافة إلى أخواله من اسرة بن قانة ، وقرر هؤلاء في اجتماع عقدوه مع الباي سنة 1827محاربة اسرة بوعكاز الذواودة واتباعها المقيمين في قسنطينة وعلى رأسهم أسرة ابن زكري و أسرة بن الأبيض واسرة بن نعمون (4)

لم تقتصر سياسة الحاج احمد المعادية للأسر المحلية على أسرة بوعكاز وأتباعها ، بل عمت عددا من الأسر ذات النفوذ القوي بالبايلك ،وذلك ظنا منه بان قوتها قد تهدد سلطته ، ولكسر شوكتها عمل على بث الشقاق بين فروعها مما أشعل نار الحرب بينها ، وقد صرح الباي نفسه بان الحرب بين القبائل العربية هي الحل الوحيد للسيطرة عليها وهو ما عبر عنه في مذكرته بقوله : " إن الحرب هي عادة الأعراب وأن الذي يريد

وحاكم عنابة ، وبالتالي مع الفرنسيين وهذا يعني خسارة الباي لهذه لقوة.

2- ثورة فروع " ابن القندوز " و " أولاد عبد السلام " و " أولاد بورنان " من أسرة المقراني ضد الباي وإعلان الشيخ عبد السلام العايب إستعداده للتعاون مع الفرنسيين للإنتقام من " الحاج أحمد باي " .

3- تشكيل حلف قوي بالصحراء ضم أقوى الأسر الصحراوية وهي أسرة بوعكاز الذواودة وأسرة بني جلاب ، حكام تقرت ، وأسرة ابن شنوف حكام ليانة ، وقد أعلن هؤلاء وعلى رأسهم شيخ العرب الشرعي " فرحات بن سعيد " (٦) إتحادهم مع " مصطفى باي التيطري " الذي أعلن نفسه دايا على الجزائر بعد سقوط حكم " الداوي حسين " والباي " إبراهيم جريتلي " الذي كان يطالب بحكم قسنطينة وقد أشار محمد الصالح العتري إلى إتصال المعارضة في الجنوب بيوسف الذي أعلن نفسه بايا على عنابة بالاتفاق مع الفرنسيين وهو ما جاء في قوله : " وكان في ذلك الوقت كتبوا (كذا) البعض من أكابر وطن قسنطينة إلى يوسف منهم أحمد الشريف ، شيخ ريفية وفرحات بن سعيد والبعض من عامر الغرابية ، فرقت (كذا) أولاد نابت والأخضر بن سليمان من دايرت (كذا) واد بوصلاح وأولاد بن يلس ومحمد بن سحنون من زمول وأولاد مقورة بن عاشور وفرحات بن علمي من أولاد عبد النور محمود ولد محمد الطيب العباسي من أولاد عبد النور والبعض من مشايخ أمية وطلبوه يقدم إلى قسنطينة ويترل عليها بالفن وهم يكونوا (كذا) في عونه إلى أن يتمكن بها " (٧)

الحاج أحمد باي والمعارضة الداخلية بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر:

كانت النتيجة الحتمية لهذه السياسة، غير الحكيمة، التي اتبعها الحاج أحمد باي هي إعلان العديد من القبائل والأسر ذات النفوذ بالبايلك، الحرب عليه، في أول فرصة صادفتهم ، فقد أعلنت العديد من القبائل عصيائها " للحاج أحمد " برفضها الاستجابة للتعينة العامة التي أعلن عنها الباي للدفاع عن مدينة الجزائر ضد الغزو

الفرنسي ، ولم تقف هذه المعارضة عند رفض العمل العسكري تحت قيادة الباي ، بل تعدتها إلى إعلان الاستقلال عن السلطة المركزية بقسنطينة وانتخاب حكام محليين أطلق عليهم إسم " باي العامة " .

وبدل التراجع عن هذه السياسة ومحاولة و كسب الأسر القوية للإستعانة بها على مقاومة الجيوش الفرنسية الزاحفة نحو بايلكه ، وقع الحاج أحمد في المخطط وأعلن الحرب على هذه الأسر والقبائل الأمر الذي شتت قواه وأضعف مقاومته فبالإضافة إلى مواجهته للانقلاب العسكري الذي قامت به فرقة الإنكشارية ، في مدينة قسنطينة ، أثناء غيابه عن المدينة .فقد واجه الحاج أحمد باي أحلافا رسمية وغير رسمية عقدت ضده بين باي تونس والفرنسيين من جهة وبين هؤلاء و. الباي الجريتلي والقائد يوسف المملوك من جهة أخرى وبذلك خلق الحاج أحمد لنفسه معارضة داخلية قوية تمثلت في :

1-إعلان الشيخ الحسناوي ، شيخ أحرار الحنانشة المخجلوع تحالفه مع باي تونس

فرحات مدعيا أنه يشكل خطرا على حكمه ، وهو ما شرحه في مذكراته بقوله أن إتفاقا تم بينه وبين قاداته العسكريين على التمرکز في طريق عناية للتصدي لأي هجوم من الغزاة الفرنسيين على قسنطينة إلا أن بوعزيز بن قانة " إحتج على ذلك بشدة قائلا : " ماذا تريدون أن تفعلوا ، تبعدون عن بلدكم وتتوجهون نحو الشمال إذن فأنتم لا تعلمون أن فرحات بن سعيد يقترب بسرعة من الزيبان وفي الوقت الذي تحاولون فيه الدفاع عن قسنطينة فإنكم تعرضون أنفسكم للطرد من منطقتكم ولذلك يجب أن نسرع إلى الصحراء ، ندخل عائلتنا ومن إتبعنا إلى المدن ثم نخرج متحدين ضد العدو الذي نخشى هجومه أكثر ، فالفرنسيون لن يتقدموا بينما " فرحات " يزحف علينا ومن ثمة يجب أن نبدأ بمحاربته ، وبعد ذلك نوجه قوانا وهماجم الفرنسيين " (9) ويضيف " الحاج أحمد " : " لم أستحسن هذه النصيحة ولكنه لم يكن لي أهل عدا أبنائي ، أقرب من " بوعزيز " فلم أكن أعتقد أنه يستطيع أن يقترح علي ما من شأنه أن يضر بي وعليه إنضممت إلى رأيه ولو أن الله هدايني في ذلك الوقت لفهمت أنه يريد جلبي إلى الصحراء ليأخذ أموالي عن آخرها ، ولكن إذا حكم القدر على شخص بالهلاك عمي بصره وبصيرته وصار يعتقد الخير فيما يؤدي إلى الخراب ، وأكرر لقد إتبع رأي بوعزيز وكان ذلك هو مصابي الأعظم " (10) ، فعلا خاض الباي حروبا طاحنة

هذه نماذج من المعارضة المسلحة التي واجهها الحاج أحمد باي أثناء مقاومته للإحتلال الفرنسي ، إلا أن وقوف أسرة بوعكاز الدواودة وعلى رأسها الشيخ فرحات بن سعيد ضد الباي كانت سببا في أكبر الخسائر التي مني بها الباي ، إذ بمعداته لهذه الأسرة وأتباعها خسر الباي أقوى دعم عسكري ، كان الأخرى به أن يستغله لدعم قواته ضد الإحتلال الفرنسي ، بالإضافة إلى أنه فتح على نفسه جبهة قوية معادية شتت قواه وأفشلت مخططاته لمقاومة الجيش الفرنسي . فقد كان " فرحات بن سعيد " يسيطر على كامل الصحراء الشرقية للجزائر من " أولاد جلال " غربا إلى " وادي سوف " شرقا ، وكانت معظم القبائل الصحراوية تأتمر بأمره ، هذا إلى جانب كونه فارسا شهد له العدو قبل الصديق بالشجاعة والقوة ، وهو ما عبر عنه " الحاج أحمد " نفسه في مذكراته بقوله : " وفرحات بن سعيد هذا الذي تسبب عدوانه في تغيير مشاريعي كان عدوا و منافسا لبوعزيز (بن قانة) الذي خلفه في منصب شيخ العرب ... غير أنني أريد أن أنصف فرحات فأقول : إنه رجل بارود وصاحب ذراع وقد حاربني مدة سبع سنوات ، فكان في المعركة يقابل مائة وحده . ويعتبر " بوعزيز " إلى جانبه امرأة " (8) .

ويبدو أن الحاج أحمد باي أدرك متأخرا خسارته الكبرى بمعداته " لفرحات بن سعيد " وأسرته وندم على ذلك ندما كبيرا ، بل أنه ألقى باللوم في ذلك على خاله بوعزيز الذي شجعه على محاربة

فعل إنتقامي شخصي من الباي الذي أخذ منه مشيخة العرب التي كانت متوارثة في أسرته منذ قرون طويلة وما دخوله تحت قيادة الأمير عبد القادر لمقاومة الفرنسيين⁽¹⁴⁾، إلا دليل على أنه لا يسعى من وراء تحالفاته إلا للانتقام من الباي واسترجاع مكانته بين عرب الصحراء ، وذلك لن يتأتى له إلا باسترجاع مشيخة العرب ، وقد اعتمد في ذلك على قاعدة (عدو العدو صديق) .

ومهما كانت نية فرحات بن سعيد في تحالفه مع الفرنسيين ضد باي قسنطينة فإن ذلك التصرف لم يكن وخيما على مقاومة الحاج أحمد للفرنسيين فحسب ، بل كان وبالا على أسرة بوعكاز الذواودة نفسها ، إذ أفقدتها شعبيتها ومكانتها بين عرب الصحراء الذين اعتبروا شيوخها خونة للدين لتحالفهم مع " الكافر " ضد الباي المسلم ، وهو ما عبر عنه الشيخ فرحات بن سعيد نفسه في رسالة إلى الجنرال فالتي " **Generale Valée** " في 12 أكتوبر من سنة 1832 م بقوله : " الناس حين تسمع بخاطرننا بلغك (كذا) تكرهنا إلا على أجل محبتنا فيك خصوصا أهل الإسلام الذين في الجزائر ... ونحن تعارينا بك كثيرا لأننا (كذا) محسوبون عليك وعارنا عليك ، وقد تعارينا ⁽¹⁵⁾ ببعضنا بعضا وصارت الناس تعارينا فينا وتقول لنا إلا أصحاب الرومي ... " ⁽¹⁵⁾ .

وبهذا يمكن القول ان المنتصر في هذا الصراع كان منهزما ، فالباي خسر قواته

ضد " فرحات بن سعيد " ، دامت حسب قول الباي نفسه ، سبع سنوات ⁽¹¹⁾ .

لم تفوت فرنسا هذه الفرصة لاستغلال تلك الظروف لصالحها اتصلت بالقبائل المعادية للباي ، وعلى رأسها أسرة بوعكاز الذواودة وأتباعها ، قصد التعاون معها لمحاصرة الباي والإطاحة بحكمه في قسنطينة وهو ما دلت عليه عدة رسائل تبادلها شيوخ أسرة بوعكاز وأسرة بني جلاب مع القادة الفرنسيين ⁽¹²⁾ وكلها نصت على التعاون لمحاربة الحاج أحمد ، وكان أول إتصال للشيخ فرحات بن سعيد بالدوق " دورو فيقو " سريا في 1831م ، ثم أصبحت المراسلات علنية ومكثفة بعد سنة 1832م .

ومن بين ما جاء في رسالة من الجنرال " دوروفيقو " موجهة إلى الشيخ فرحات بن سعيد ما يلي : " من سعادة الجنرال الكبير إلى حضرة الشيخ فرحات بن المسعود (كذا) نعلمكم أنه وصلني (كذا) البراءة التي كتبوها لي (بياض) (تحقق عندي أنك

عندك المقدرة والقوة لمطاردة أحمد باي الذي أخذ حكومة قسنطينة من غير شريعة (كذا) (بياض) يستحق أن تدوم على مطاردته وأن تعمل معاه (كذا) كل مقدرتك لخراجه .. " ⁽¹³⁾ هذا ما يدل على إعتماد الفرنسيين على قوة الشيخ " فرحات بن سعيد " لإضعاف قوة الباي الحاج أحمد .

والواقع أن تعاون " فرحات بن سعيد مع الفرنسيين لم يكن في إعتقادي ، خيانة للدين والبلد بقدر ما كان رد

وعجز عن مقاومة الفرنسيين وبالتالي خسر حكمه في قسنطينة ، وفي الوقت نفسه خسر شيوخ العرب مكانتهم بين عرب الصحراء ، وكان المنتصر الوحيد في هذا الصراع هو الإحتلال الفرنسي الذي تمكن بفضل المعارضة الداخلية للحاج أحمد باي ، من دحر جيوش المقاومة المشتتة ، إلى أن حوَصر الباي تدريجيا في مدينة قسنطينة، فلم يعد نفوذه يتعدى حدود هذه المدينة ، وحتى داخل قسنطينة وجد الحاج أحمد ، حسب تاريخ العتري معارضة شديدة، فرغم التفاف مجلس المدينة برئاسة شيخ الإسلام محمد الفكون ، حول الباي وتمسكهم بحكمه وموافقتهم على منحه لقب الباشا ، فإن أن هذا الوضع سرعان ما تغير وبدأت الخلافات تدب بين أعيان المدينة والباي حول قضية فتح المفاوضات مع الفرنسيين ، حيث إنقسمت

المدينة إلى فريقين فريق يطالب بالمفاوضات مع الفرنسيين ويتزعمه شيخ الإسلام يسانده قائد الدار بالبحاوي ومصطفى بن جلول قاضي الحنفية وأحمد العباسي قاضي المالكية ، وفريق يصير على المقاومة المسلحة ويتزعمه الباي والقادة العسكريون أمثال بن الحملوي وابن عيسى⁽¹⁶⁾

ورغم هذه الأزمة التي أصبح الحاج أحمد يتخبط فيها إلا أنه لم يتخل عن سياسة العنف التي انتهجها ضد بعض القوى المحلية ، منذ وصوله إلى الحكم ، فقام بقتل كل من شك في إخلاصه من أعيان قسنطينة وكان أول ضحاياه هو كاتبه الخاص محمد العتري الذي اتهم

بالخيانة لنشره الدعاية بأن قوة الفرنسيين لا تقهر وأن الحل الأمثل لحقن دماء أبناء قسنطينة هو الاستسلام⁽¹⁷⁾ وكانت هذه السياسة كفيلة بمضاعفة عدد المعارضين لسياسة الباي في قسنطينة وبالتالي إضعاف مقاومته للفرنسيين الذين دخلوا المدينة في 13 أكتوبر 1837، وكان أول من أستقبل بالمدينة من طرف القوات الفرنسية هو الشيخ فرحات بن سعيد أقوى معارض للحاج أحمد ، حيث وصلها في 27 أكتوبر من نفس السنة وأستقبل من طرف " الكونت قالي " الذي منحه لقب خليفة الصحراء ، وكلفه بمطاردة الحاج أحمد باي الذي فر نحو الجنوب ، وفعلا خاض فرحات بن سعيد ، بالتحالف مع مستشاره الخاص أحمد بن شنوف حاكم ليانة ، معارك عديدة ضد الباي الذي تخلى عنه آخر حلفائه وهو " بوعزيز بن قانة " ليلتحق بصف الموالين للإحتلال الفرنسي ، وذلك محافظة على مكانته بالمنطقة . وكانت مطاردة ابن شنوف لأحمد باي متواصلة في جبال أولاد سلطان إلى حين تم القبض عليه وتسليمه للسلطات الفرنسية وبذلك يمكن القول أن القضاء على مقاومة الحاج أحمد باي في شرق الجزائر لم يكن بأيادي أجنبية بقدر ما كان بأيادي محلية عملت كل ما في وسعها على تعبيد الطريق أمام الجيوش الفرنسية لدخول قسنطينة ، وهنا يصدق قول الشاعر في قوله:

لاخير في سيوفنا وألوفنا *** ما دام فينا من يسعى لحتوفنا" .

هوامش المقالة :

- 1- أنظر جميلة معاشي ، الأسر المحلية الحاكمة في بابلوك الشرق الجزائري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة قسنطينة 1992.
- 2- حب هاملتون وهارولد بون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف القاهرة ، 1971 ، ج 2 ، ص 19
- 3- Gouvion (E) (M) , Aayane EL Marhariba Alger 1920 P34.
- 4- - Bengana (Bouaziz chekh el arab) , Une Famille de Grands chefs sa hariens (les Bengana) , Edition Soubiron , Alger 1930, P34-35.
- (*)- الباوي تصفية هذه الأسر تصفية جسدية . وقد علق الباحث الفرنسي شارل فير و " (ch) Feraud " على قيام الباوي بالقضاء علي هذه الأسر القسنطينية ، ذات الأهمية الإدارية والعلمية ، بقوله أنه قام بذلك ليفسح المجال أمام أسرة بن قانة للبروز كأكبر أسرة في المدينة.
- 5- العربي الزبيري ، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضرسة ، ط 2 ، ش. و. ن. ت. ، الجزائر ، 1981 ، ص 40-41.
- 6- للإطلاع على الصراعات الأسرية في عهد الحاج أحمد باي ، أنظر جميلة معاشي ، المرجع السابق ، من ص 260 إلى ص 318.
- (**)- تولي المشيخة في 1821 م وأخذت منه من طرف الحاج أحمد باي سنة 1826م.
- 7- الفريدة المونسة ، ص 115.
- 8- مذكرات الحاج أحمد ص 48.
- 9- نفس المصدر .
- 10- نفس المصدر ، ص 77
- 11- للإطلاع على تفاصيل هذه الحروب أنظر Bengana , Opcit ,
- 12- يضم أرشيف ما وراء البحار A.O.M عدينة إيكس أميروفانس الفرنسية العديد من هذه الرسائل (أنظر A.O.M F 80 N° 1672)
- 13- أنظر نص الرسالة كاملا في ، جميلة معاشي ، المرجع السابق ، ص 363
- 14- عين الأمير عبد القادر خليفة له بالجنوب الشرقي للبلاد إلا أن خلافا وقع بين الطرفين مما أدى إلى سجن فرحات من طرف الأمير عبد القادر (أنظر مذكرات الحاج أحمد ص 80).
- (***)- تعابونا = شتمنا.
- 15- أنظر نص الرسالة كاملا في ، جميلة معاشي ، المرجع السابق ، ص 361
- 16- الفريدة المونسة ، ص 103 وما بعدها .
- 17- أنظر نفس المصدر ص 105.

